



صناعة مرجعية

مطر آل عاطف

كثيراً ما أسمع عبارة فلان مؤدلج وشبابنا مدحّطف، وابداً باللّفّكر لماذا أختطفوا وما هي معايير الثبات والاستقامة وما هي لوحتنا الجميلة للآخر، ما الذي نرغب بتصديره وإشهاره للغربي والشرقي من غير العرب...

فالفرنسي يفتر بالثورة الفرنسية التي شَكَّلت أوروبا والتصنيفات السياسية المتدوالة كاليمين المتطرف واليسار الثوري ويعين الوسط وخلافها من تصنيفات، والأتراء كذلك لا تكاد تجد بيئاً تركياً إلا وبه صورة لأناتورك حامي عرين العرق التركي وهازم جحافل أوروبا الغربية، والأمر ذاته عند الإيطاليين أرباب العافية والجريمة الفتنية في الوقت الراهن فلهم تهدّبُ فصطّان معجولٍ بعقدة نقص للعاصي التليد حين التحدث عن عصر النهضة والرسامين، وكيف أن أوروبا انشقت عن كهنوت الكنيسة بعد أن أَبْجَسَت النهضة في إيطاليا وأربابها الغنّيون عن التعريف ..

أذكر قبل عامين ونـيـف كنت مع أسرتي خارج المملكة وتحديداً في العاصمة الإثيوبية أديس أبابا فلها شعبٌ يشتـام ومتمسـك بثوابته وسلوك أجداده في أدق التفاصـيل ، وكـنـت في تـرـلـ مع نـفـرـ من مـذـلـلـ دولـ العالمـ ولـمـتـ يـونـانـياـ يـعـشـيـ فـتـاخـتـرـاـ ويـتـحدـثـ لـسـيـاحـ يـابـانـيـنـ عنـ عـلـمـ المـنـطـقـ وـأـرـسـطـوـ وـكـيـفـ كـانـتـ حـيـاةـ اـرـسـطـوـ وـطـلـابـهـ فـيـ اليـونـانـ وـمـتـ نـشـاتـ الـأـلـعـابـ الـأـلـمـبـيـةـ وـبـكـلـ أـمـانـةـ استـمـعـتـ بـالـتـلـصـصـ عـلـىـ حـدـيـثـهـ خـصـوصـاـ أـنـهـ لـمـ يـكـذـبـ بلـ كـلـ هـذـهـ الـمـوـاـضـيـ الـتـيـ يـفـتـرـ بـهـاـ مـاهـيـ إـلـاـ لـإـثـارـةـ إـعـاجـبـ يـابـانـيـةـ حـسـنـاءـ فـتـحـرـرـهـ فـهـذـهـ قـصـةـ تـبـعـثـ فـيـ مـكـانـ مـؤـاديـ سـؤـالـ ،ـ مـاـ نـحـنـ وـمـاـ هـيـ بـضـاعـتـنـاـ وـلـوـحـنـنـاـ الـجـمـيـلـةـ لـلـرـائـيـ فـمـعـلـومـ أـنـ الـعـرـبـ جـلـ إـرـثـهـ هـوـ شـعـرـ وـنـشـرـ فـنـنـ أـمـةـ شـفـهـيـةـ وـهـذـاـ مـنـ خـصـوصـيـاتـ الـعـرـبـ لـاـ مـنـ نـوـاقـصـهـ كـمـاـ يـزـعـمـ الـمـسـتـعـلـمـونـ ،ـ فـالـفـاصـحةـ وـالـبـيـانـ هـيـ إـرـهـاـصـاتـ لـتـلـقـيـ الـوـحـيـ وـكـلـامـ الـخـلـاقـ الـعـلـيـمـ جـلـ جـلـالـهـ فـقـدـ شـرـفـ الـحـقـ تـبـارـكـ فـيـ عـلـيـاهـ الـعـرـبـ وـكـلـهـمـ فـيـ آـنـ وـاحـدـ بـنـشـرـ الرـسـالـةـ ،ـ فـالـقـرـآنـ وـعـلـمـ الـتـجوـيدـ يـغـلـبـ عـلـىـ ظـنـيـ أـنـهـاـ وـجـهـ الـعـرـبـ وـلـوـحـنـهـ الـجـمـيـلـةـ الـتـيـ يـظـهـرـهـاـ لـلـغـرـبـ ،ـ وـالـلـهـ وـتـالـلـهـ لـأـنـسـيـ وـالـدـيـ رـعـاهـ الـرـحـمـنـ وـهـوـ يـتـحـدـثـ مـعـ السـائـحـ الـيـابـانـيـ يـوـغـيـ فـيـ شـتـاءـ إـثـيوـبـياـ الـقارـاصـ عـنـ دـيـنـنـاـ الـخـنـيـفـ وـعـنـ حـرـمةـ أـكـلـ لـحـمـ الـخـنـزـيرـ وـحـرـمـةـ شـرـبـ الـخـمـرـ بـعـدـمـ رـأـيـ يـوـغـيـ خـرـوـفـ اـشـتـرـاهـ وـالـدـيـ لـكـيـ تـعـشـيـ فـجـاءـ مـنـظـفـاـ وـفـضـولـ الـأـطـفـالـ فـيـ وـجـهـهـ يـقـرـأـ الـأـقـيـ وـكـانـتـ تـجـربـهـ رـائـعـهـ لـهـ لـأـنـ صـدـيقـتـهـ الـيـابـانـيـهـ كـانـتـ مـتـحـسـسـةـ مـنـ مـنـظـرـ الـخـرـوفـ ،ـ فـقـدـ اـعـتـادـتـ عـلـىـ أـكـلـ لـحـمـ الـخـنـزـيرـ وـسـائـرـ الـلـحـومـ فـيـ بـلـادـهـ يـاسـتـنـاءـ الـخـرـفـانـ فـهـمـ يـزـعـمـونـ أـنـهـمـ لـمـ يـرـوـهـاـ فـيـ حـيـاتـهـمـ إـلـاـ مـعـنـاـ ،ـ وـبـدـأـ يـسـأـلـ عـنـ الـمـعـلـكـةـ وـشـعـبـهـ وـأـكـلـهـاـ فـقـلـتـ هـذـاـ إـلـاـ مـاـ يـنـبـغـيـ لـنـاـ الـعـرـفـةـ أـكـثـرـ عـنـ دـيـنـنـاـ وـالـدـيـ عـنـ حـيـاتـهـ الـشـخـصـيـةـ وـالـمـهـنـيـةـ وـعـنـ الـعـسـكـرـيـةـ وـمـاـهـيـهـ الـمـضـنـيـ فـيـ الـدـفـاعـ الـجـوـيـ ،ـ وـكـانـ يـوـغـيـ مـسـتـمـعـاـ مـمـتـارـاـ وـمـهـذـبـ كـمـاـ هـوـ مـعـرـفـ عـنـ الـيـابـانـيـنـ ،ـ وـكـانـ وـالـدـيـ سـفـيرـاـ أـمـيـنـاـ لـدـيـنـهـ وـعـادـاتـ بـلـادـهـ وـأـكـرمـ يـوـغـيـ وـكـلـ مـنـ فـيـ الـتـلـلـ مـنـ سـيـاحـ ،ـ أـسـأـلـ اللـهـ لـيـوـغـيـ الـهـدـاـيـاـ ..

وـالـيـوـمـ أـسـأـلـ ..ـ أـرـىـ مـدـارـسـ تـحـفـيـظـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ قـلـتـ وـالـأـسـوـأـ أـنـ الـأـهـالـيـ مـاـ عـادـتـ أـوـلـوـيـةـ عـنـهـمـ إـدـخـالـ الطـفـلـ لـمـدـرـسـةـ تـحـفـيـظـ لـكـيـ يـنـتـ حـلـمـ اللـهـ قـدـهـ وـصـمـاـحـهـ وـبـعـدـ ذـلـكـ نـوـرـاـ فـيـ قـوـلـهـ وـفـعـلـهـ ،ـ فـقـلـ لـيـ بـالـلـهـ عـلـيـكـ مـاـذـاـ سـنـقـدـمـ لـلـأـمـمـ الـأـخـرـيـ الـتـيـ لـدـيـهـاـ شـيـعـ تـرـفـعـهـ وـتـنـافـحـ عـنـهـ ،ـ مـاـذـيـ عـنـدـكـ كـعـربـيـ أـصـلـاـ غـيرـ هـذـاـ فـلـالـعـبـانـيـ وـالـعـمـرـانـ قـدـ صـدـرـنـاـ ،ـ وـلـاـ أـوـانـيـ خـزـفـيـةـ تـارـيـخـيـةـ نـمـلـكـهـاـ ،ـ وـكـلـ طـفـرـةـ غـفـنـهـ جـوـفـاءـ تـتـأـثـرـ بـهـاـ الـأـجـيـالـ الـحـالـيـهـ كـالـكـيـ بـوـبـ الـغـنـاءـ الـكـوـرـيـ أـرـاهـ يـخـلـبـ بـابـ الـعـرـاهـقـيـنـ وـالـعـرـاهـقـاتـ وـالـشـيـلـاتـ الـمـهـاـيـطـيـةـ وـكـلـ مـالـاـ يـمـثـلـنـاـ تـقـرـيبـاـ ،ـ أـيـنـ مـدـارـسـ تـحـفـيـظـ وـتـجـوـيدـ وـأـمـيـلـ مـرـكـازـ الـأـلـبـةـ الـثـقـافـيـ فـيـ مـكـةـ الـمـكـرـمـةـ الـذـيـ يـذـكـرـ الـعـرـبـيـ يـعـنـهـ هـوـ وـقـدـ شـرـفـتـ أـنـاـ وـزـمـيلـيـ الـأـسـتـاذـ حـسـنـ الـفـامـدـيـ بـأـنـ نـكـونـ ضـيـوـفـاـ وـتـلـمـيـدـاـ لـلـسـاتـذـنـاـ إـبـرـاهـيمـ يـحـيـيـ أـبـوـ لـيـلـيـ الـقـائـمـ عـلـىـ الـمـرـكـازـ نـسـتـمـعـ إـلـىـ لـبـ هـوـيـتـنـاـ وـجـوـهـرـهـاـ وـهـوـ سـيـرـةـ سـيـدـ وـلـادـ آـدـمـ عـلـيـهـ أـفـضـلـ الـصـلـةـ وـالـسـلـامـ إـلـىـ يـوـمـ الدـيـنـ ;ـ وـهـذـهـ وـظـيـفـةـ الـأـهـلـ قـبـلـ الـمـدـرـسـةـ وـالـمـسـجـدـ تـنـشـئـةـ الطـفـلـ عـلـىـ اـسـمـ مـحـمـدـ صـلـيـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ ،ـ وـعـلـىـ حـفـظـ جـزـءـ عـمـ وـتـبـارـكـ كـنـوـةـ لـتـشـكـيلـهـ وـتـقـديـمـ تـسـجـيلـهـ فـيـ مـدـرـسـةـ تـحـفـيـظـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ قـبـلـ الـمـدـرـسـةـ الـتـقـلـيدـيـةـ وـالـتـرـكـيـزـ عـلـىـ عـلـمـ الـتـجـوـيدـ مـذـ نـعـوـمـةـ الـأـلـفـارـ ،ـ فـكـلامـ اللـهـ لـاـ يـفـتـرـ بـهـ فـيـ دـنـيـاهـ وـحـسـبـ بـلـ يـدـخـلـ مـعـهـ قـبـرـهـ وـبـلـسـ أـبـوـيـهـ تـاجـ الـوـقـارـ يـوـمـ لـاـ يـنـفـعـ مـالـ وـلـاـ بـنـوـنـ إـلـاـ مـنـ أـتـىـ اللـهـ بـقـلـبـ سـلـيمـ ،ـ لـيـصـيرـ جـزـءـ مـنـ لـحـمـهـ وـدـمـهـ فـتـتـشـكـلـ ثـوابـهـ وـجـوـهـرـهـ فـلـاـ تـجـرـأـ أـيـ رـيـحـ صـرـصـ عـاتـيـةـ أـوـ مـوجـةـ سـافـلـةـ عـابـرـةـ ،ـ وـاسـلـالـ اللـهـ أـنـ يـخـيـبـ ظـنـيـ لـكـنـ إـذـاـ اـسـتـمـرـ وـضـعـ النـاشـئـةـ وـالـفـتـيـانـ عـلـىـ مـاـهـيـهـ فـسـيـخـرـ جـيلـ كـامـلـ مـنـ الـمـوـلـدـ بـلـ مـخـصـ.